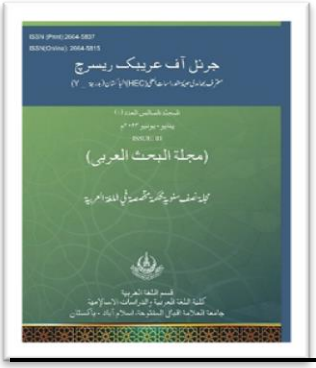

Journal of Arabic Research
EISSN: 2664-5807, PISSN: 26645815
Publisher: Allama Iqbal Open University, Islamabad
Journal Website:
https://ojs.aiou.edu.pk/index.php/jar

Vol.07 Issue: 02 (July - Dec 2024)
Date of Publication: 01-Jan 2025

https://ojs.aiou.edu.pk/index.php/jar

Article	السيرة النبوية كعمل أدبي(مع كتاب "محمد رسول الحرية" لعبد الرحمن الشرقاوى) The Prophet's Biography as a Literary Work (With the Book "Muhammad, Messenger of Freedom" by Abdel Rahman Al-Sharqawi)
Authors & Affiliations	**Prof. Ibrahim Awad** Ain Shams University, Cairo
Dates	Received: 11-09-2024 Accepted: 10-12-2024 Published: 01-01-2025
Citation	Prof. Ibrahim Awad, 2024 السيرة النبوية كعمل أدبي(مع كتاب "محمد رسول الحرية" لعبد الرحمن الشرقاوى) [online] IRI - Islamic Research Index - Allama Iqbal Open University, Islamabad. Available at: https://ojs.aiou.edu.pk/index.php/jar
Copyright Information	السيرة النبوية كعمل أدبي(مع كتاب "محمد رسول الحرية" لعبد الرحمن الشرقاوى) Prof. Ibrahim Awad, is licensed under Attribution-ShareAlike 4.0 International
Publisher Information	Department of Arabic, Faculty of Arabic & Islamic Studies, Allama Iqbal Open University, Islamabad

Indexing & Abstracting Agencies

IRI	Australian Islamic Library	HJRS	DRJI
Islamic Research Index	Australian Islamic Library From darkness to light! www.AustralianIslamicLibrary.org	HJRS HEC Journal Recognition System	DRJI

ABSTRACT

The Prophet's Biography as a Literary Work (With the Book "Muhammad, Messenger of Freedom" by Abdel Rahman Al-Sharqawi)Prof. Ibrahim Awad
Ain Shams University, Cairo

Abdul Rahman Al-Sharqawi (November 10, 1921 – November 24, 1987) was a poet, journalist, political writer, playwright, storyteller, and creator of biographies of a number of Islamic figures, the most important and first to be published being “Muhammad, Messenger of Freedom.” His book, “Muhammad, Messenger of Freedom,” is a book on the biography of Muhammad. Its author asserts that he wrote it in a different manner from previous books on the biography of the Prophet, and that he addresses it to non-Muslims as well as to Muslims, but he stripped it of miracles and of defending the truthfulness of the Prophet in his declaration of prophethood...

شاعر وصحافى وكاتب سياسى ومؤلف مسرحى وقصاص ومبدع تراجم لعدد من الرموز الإسلامية أهمها وأولها صدورا "محمد رسول الحرية. وكتابه: "محمدرسول الحرية" هو كتاب فى السيرة المحمدية يؤكد صاحبه أنه وضعه على غرار مختلف عن كتب السيرة النبوية السابقة وأنه يتوجه به إلى غير المسلمين كما يتوجه به إلى المسلمين، لكنه جرده من المعجزات ومن الدفاع عن صدق النبى فى إعلانه النبوة... قال: "لقد أردت أن أقول لهم ان السيرة ليست فى حاجة إلى كتاب جديد يتحدث عن عصر النبوة أو يدافع عن صدق الرسالة أو يؤكد معجزات النبى. لسنا فى حاجة إلى كتاب جديد عن الدين يقرأه المسلمون وحدهم ولكننا فى حاجة إلى مئات من الكتب عن التطور الذى يمثله الاسلام، كتب يقرأها المسلمون وغير المسلمين تصور العناصر الإيجابية فى تراثنا، وتصور ما هو إنسانى فى حياة صاحب الرسالة. إننا بحق فى حاجة إلى

مئات من الكتب يقرأها الناس كافة: الذين يؤمنون بنبوة محمد والذين لا يؤمنون. إننا دائمًا فى حاجة إلى إعادة تقييم تراثنا، إلى إحياء ما هو إنسانى فيه ونشره على العالم، إلى تصوير القدر المشترك المتفق عليه بين الجميع من دور أصحاب الرسالات، أى إلى تصوير الجانب الدنيوى الذى أصبح ميراثًا مشتركًا لكل الناس مهما تختلف دياناتهم وفلسفاتهم وآراؤهم. وأنا أعرف أن من الناس من يجحد دور الإسلام ومحمد، ومن يتهم الإسلام بأنه حركة رجعية، ومن يتهم محمدًا بأنه أرستقراطى من أشراف مكة كان يطلب ملك الحجاز، وأنه جاء لينظم العبودية وليحتال على المجتمع ببعض إصلاحات تخفف الضغط عن الفقراء ليؤخر ثورتهم، وأنه جاء ليضطهد اليهود. ومثل هذه الآراء ينشرها كتاب كثيرون فى العالم بأكثر من لغة".

وهو يعقب على تلك الاتهامات بقوله: "وعلى الرغم من أننا نملك آلاف الأدلة على فساد هذه الآراء ونملك من حقائق التاريخ الثابتة ما يقطع بأن للإسلام دورًا تقدميا وتحريريا لم يزل يؤثر فى تاريخ البشرية ومستقبلها، وأن محمدا كان رسولا يبشر بالحرية والإخاء الانسانى، وأنه عامَلَ اليهود بصبر ورحمة وحكمة لم يعرفها التاريخ من قبل ولا من بعد، على الرغم من كل هذا فقد عدل كثير من كتابنا عن مناقشة هذا كله، ودارت معظم الكتابات فى السيرة حول النبوة والمعجزة، حول الرسول لا الرجل. ولكننا حين نناقش من لا يؤمن بالجانب الدينى يتحتم علينا أن نناقشه بمنطقه لا بمسلماتنا وعقائدنا. إنهم يناقشون الرجل والتعاليم فلا يجب إذًا أن نتحدث عن شىء آخر. لا يجب أن نواجههم بالنبى حين يتحدثون عن الرجل!"

ثم يمضى قائلا: "فلنواجههم بالرجل، وإن فى حياته لثروة لا تَنْفَد من الإباء والرحمة والحب والحكمة والبساطة والقدرة الخارقة على التنظيم والإبداع وكسب القلوب... أكنا نخشى من الاتهام بالكفر والخروج على الدين وعدم الاعتراف بالنبوة؟ ولكن من هو هذا الذى يملك أن يفتش فى قلب انسان ليناقش معتقداته وايمانه؟ أحرام على أن أكتب لغير المسلمين عما فى حياة محمد النبى من روعة وبطولة وإنسانية وخطر؟... وهذا العمل ليس مجرد عمل أدبى بل واجب قومى ومسؤولية فنية يجب أن ينهض بها من يشعر فى نفسه بالاستعداد لها. ولقد حاولت أن أنهض بدورى المقسوم فى هذه المسؤولية، فقدمت هذا الكتاب الذى اخترت له الشكل القصصى لا شكل البحث. إنها لمحاولة أقدمها أولًا إلى غير المؤمنين بمحمد، راجيًا أن يتناول القارىء، مهما تكن عقيدته، هذا الكتاب بنفس الروح التى كتبته بها"[1].

ولكن ما المانع فى أن نكتب عن عظمة محمد النبى والرسول بالطريقة التى تفتح العقول والقلوب للإقرار بنبوته ورسالته فنهدم الحاجز الذى أقامه الشيطان أو الجهل بين البشر الذين لا يؤمنون به صلى الله عليه وسلم وبين الدخول فى دينه، فإن لم يدخلوا فى دينه فلسوف تتأثر أفئدتهم بعظمته صلى الله عليه وسلم؟ ونحن حين نكتب عن محمد فإننا لا نكتب عنه كإنسان عادى بل كإنسان نبى ورسول. إننا لا نتسول الإعجاب به عليه السلام من الآخرين، بل نريد أن نقيم الحجة على من يكفر أو لا يبالى به كصاحب رسالة سماوية. إننا فى كتابتنا عن محمد النبى لا نكره أحدا على الإيمان بنبوته ورسالته بل ندعو الآخرين إلى الإيمان بها بملء حريتهم ونقدم لهم الدلائل على أنه رسول الله وعلى النحو الذى يفهمه عصرنا هذا. أما من لا يفتح قلبه لنور الحق والعظمة المحمدية فشأنه وذاك. سوف نشعر بكل تأكيد بالأسف على ذلك، لكننا لا نتعدى الأسف بأى حال. وهذا موقفنا ولا نظن إنسانا عاقلا يمكن أن يتخذه تكأة للهجوم علينا مثلما لا نفكر نحن من جهتنا فى إكراه أحد على الدخول فى الإسلام.

كذلك اشتكى الشرقاوى فى مقدمة الكتاب ممن اتهموه فى دينه، وحمل عليهم، وإن أبدى لامبالاته بهم. وأحسب أنهم قرأوا ما كتبه فى السيرة النبوية فى ضوء ما يعرفونه عن يساريته من ناحية، ومن ناحية أخرى فى ضوء ما كتبه فى تحليل بعض الأمور تحليلا ماديا على أسلوب اليساريين المتطرفين ومن لف لفهم كالتلميح إلى أن الرسول (الرسول لا الله) قد حرم الخنزير على أتباعه نكاية فى اليهود، الذين كان يتاجرون فيه، فأراد أن يضربهم فى مصالحهم التجارية. أى أن المسألة هى مسألة نزاع على الأموال والأمور المادية فقط[2].

ليس هذا فحسب، بل نسى الشرقاوى كذلك أو تناسى أن اليهود لا يأكلون الخنزير ولا يتاجرون فيه بمقتضى كتابهم المقدس، وهم يتشددون فى ذلك أيما تشدد. وعلى كل حال فلم نسمع أو نقرأ أن الخنزير كان جزءا من حياتهم فى المدينة سواء كطعام أو تجارة. ومرة ثالثة ليس هذا وحسب بل إن الشرقاوى على طول كتابه وعرضه لم يَعْزُ شيئا من نصوص القرآن إلى السماء ومصدره الإلهى بل كان يقول مثلا: فقال محمد كذا وكذا/ فنطق محمد بكيت وذيت/ تلا محمد تعاليمه. أنذرهم محمد بعذاب الحريق، وإنه لعذاب غليظ يصهر به ما فى بطونهم والجلود/ ومضى محمد يحض أصحابه أن يمتنعوا عن الخمر. فمهما يكن فيها من منافع فإن فيها لإثما كبيرا/ ولم يكد محمد يعلن هذا الموقف (يقصد: يقرأ آيات "الشهر الحرام بالشهر الحرام..." وكأن القرآن كلامه)/ (وعند فك كثير من أسرى قريش ومجىء الأخبار بأن قريشا تسعد للانتقام من هزيمتها فى بدر) انقطع النبى يفكر، وخرج إلى أصحابه يقول إنه

إنما أخطأ هو وأبو بكر حين لم يستمعا لنصيحة عمر، فما كان له أن يترك لقريش أسراها لتستعين بهم على حربه مرة أخرى. ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض. ولكنه على كل حال لا يستطيع أن يطبق على الأسرى قاعدتين مختلفتين. فليقبل الفدية إذن فيمن بقى (ص182)/ (عند اختلاف المسلمين الحاد حول توزيع الغنائم)وخرج محمد يصيح فى الناس مغضبًا: إنكم لأولى الناس ببعض. فليكن الحب هو ما يحكم بينكم لا المنافسة على عَرَض الدنياء. فإنكم إذا لم تجعلوا بعضكم أحباء بعض وأولياء بعض، إن لم تجعلوا الصفاء دستوركم، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير (ص183).

وحين صلى محمد عليه السلام على ابن أُبَيّ زعيم المنافقين فى المدينة: "اقترح عمر أن تقطع رؤوس زعمائهم وفى طليعتهم عبد الله بن أبى. ولكن عبد الله بن أبى كان قد مات. وأمام الموت سقط الغضب وزالت الانفعالات، فلا عتاب بعد ولا عقاب. وأقبل محمد يصلى على جثمان عبد الله بن أبى، وعمر يحتج فى عنف. وأسكته محمد، ولكنه خرج إلى الناس بعد عدة أيام يأمرهم ألا يصلوا على أحد مات بعدُ من المنافقين والمتخاذلين أو الذين دخلوا الاسلام ليثبوا إلى الغنى والجاه والسلطة" (ص347)... فالشرقاوى إذن هو الذى عرّض نفسه للقيل والقال والاتهام، إذ رأى بعضٌ أن المسألة ليست سهوا أو نسيانا أو حتى عدم اهتمام بتلك النقطة، وإنما هى أمر أبعد من ذلك وأنها تنبئ عما يجتنّ فى الضمير.

إن الشرقاوى يقول ببشرية محمد. لكن هل هناك من شاحّ فى هذا يوما من الأيام؟ إنه يستشهد بقوله تعالى فى أواخر سورة "الكهف": "قل إنما أنا بشر مثلكم"، ووضع هذه الكلمات على صفحة الغلاف، ونحن أيضا نستشهد بهذه الآية الكريمة التى تجعل من محمد عبدا لله سبحانه، وليس إلها أو ابنا لله أو وسيطا حاجزا بين الله والبشر. ولكننا لا نقف عند هذا الجزء من الآية بل نمضى فنقول كما أمره الله سبحانه أن يقول: "إنما أنا بشر مثلكم يُوحَى إلىَّ...". فهو بشر، إى نعم، لكنه بشر نبى رسول. عبد من عباد الله، إى نعم، لكنه عبد يوحَى إليه من السماء لا عبد عادى. هذا هو وضع القضية الحقيقى. وأرى أن من وقفوا ضد ما كتب الشرقاوى فى هذا الكتاب قد فعلوا ذلك لأنه، رغم رفضه لمن درسوا محمدا على أنه تاجر أو راغب فى نهوض قومه... إلخ، لم يخالفهم فى أنه ليس نبيا رسولا قد أمره الله بتبليغ وحيه إلى البشر، ولكنه خالفهم فى اللافتة التى يرفعها، وهى لافتة الرغبة فى نشر الحرية. فالموقف المبدئى بين الشرقاوى ومن أنكر عليهم ممن ترجموا لمحمد عليه الصلاة والسلام واحد، ولكن اللافتات تختلف.

نعم إن محمدا بشر مثلنا. لكن لا يصح أن ننكر أو نتجاهل أو نضيق بمن يقول إنه رغم بشريته كان نبيا رسولا يوحى إليه من لدن رب العالمين. والصحابة الذين كانوا يقولون: "أهو وحى أنزله الله أم هو الحرب والرأى والمكيدة؟" كانوا واعين طول الوقت بأنه يتلقى الوحى من الله بل كانوا يضعون الوحى قبل الرأى والمكيدة، وإلا فلم كانوا يجتمعون به دائما ويتبعونه فيما يقوله ويدعوهم إليه ويأتمرون بأمره وينتهون عما ينهاهم عنه إلا لأنهم كانوا يرون فيه نبيا رسولا؟ للمرة الثانية نقول: وما الذى يضر من يكتب عنه عليه السلام من القول بأنه نبى؟ هل فى هذه الكلمة أو فى العقيدة التى وراءها شوك يشوكهم وينغص نفوسهم؟ ترى ما الحكاية بالضبط؟ فلنكتب عن نبوته وعن مبادئه التى أتى بها: فإن آمن به الناس نبيا رسولا فبها ونعمت، وإن آمنوا بأنه بشر عظيم جاء الناسَ بتلك القيم والمبادئ من عندياته فهم وما يؤمنون به. ولم نخسر نحن ولا خسروا هم شيئا. اما إهمال نبوته منذ أول الطريق فهو إلقاءٌ للسلاح الذى ندافع به ونقاتل فى حرب الثقافات والأفكار، وتنازلٌ عن أهم ما فى أيدينا دون داع سوى داعى السذاجة أو الخبث.

وفى المقدمة التى كتبها الشرقاوى لكتابه يذكر أنه قد صاغ السيرة فى أسلوب قصصى مؤكدا أن هذا نهج جديد. وبطبيعة الحال لا يصح أن نتوقع من هذا الكلام أن تكون ترجمة حياة النبى الكريم فى الكتاب الذى فى أيدينا قد كتبت على شكل رواية أو قصة حسبما يفهم الفاهمون كلام الكاتب. ربما يصح القول بأن الشرقاوى ساقها على هيئة حكاية. والحكاية شىء، والقصة شىء آخر. الحكاية هى مجرد سرد لما حدث دون أن يتدخل المبدع فى هذا العمل بالتقديم والتأخير والحذف والإضافة ومزج الواقع بالخيال، بالإضافة إلى تصوير الشخصيات تصويرا مقنعا، وإيراد الحوارات متسقة مع شخصيات قائليها ومعبرة عن مستواهم الفكرى والاجتماعى ومهنهم... إلخ، وأن يكون للعمل بناء فنى، وهذا أهم عنصر فى الإبداع القصصى، وأن تكون للعمل القصصى بداية ونهاية وغاية تصل إليها الأحداث على سبيل العلية يضعها المبدع فى ذهنه قبل أن يخطط حرفا فى عمله. ومن ثم كنت وما زلت أستغرب كيف جرؤ د. عبد المحسن طه بدر على وضع كتاب "الأيام" للدكتور طه حسين، وهو سيرة ذاتية بامتياز، فى كتابه: "تطور الرواية العربية فى مصر" بوصفه رواية. إن ذلك يفتح الباب على مصراعيه لدخول أى شىء تحت بند هذا الجنس الأدبى فتتميع الحدود.

وهذا الذى ذكرتُه قبلا من خصائص العمل القصصى غير متوفر على ذلك النحو فى الكتاب، وبالذات البنية القصصية والغاية التى يضعها الكاتب نصب عينيه من قبل شروعه فى عمله وتكون عادة

من صنع خياله وتدبيره، ومن ثم قلنا إن عمل الشرقاوى مجرد حكاية لا قصة ولا رواية. وهنا نتوقف لنقول إن السير، ذاتية كانت أو غيرية، تقوم عادة على أسلوب الحكاية، اللهم إلا إذا شاء الكاتب أن يجعلها تحليلا لشخصية المترجم مثلا كما صنع العقاد فى "عبقرية محمد" وغيرها من العبقريات. وعلى هذا فالشرقاوى لم ينتهج هنا نهجا جديدا تماما على عكس ما ادعى. ومن هنا كان كلام الشرقاوى فى مقدمة "على إمام المتقين" أقرب إلى المراد، إذ قال: "ما أردت بهذا الكتاب إلا أن أصطنع شكلا فنيا أقرب إلى الفن القصصى أعتمد فيه على حقائق التاريخ الثابتة لأعرض مبادئ الإسلام وقيمه من خلال تصوير فنى للإمام على رضى الله عنه". فهو لم يقل إنه كتب سيرة عليّ فى شكل قصصى بل اعتمد "شكلا فنيا أقرب إلى الفن القصصى".

ومع هذا فأهم ما صنع الشرقاوى فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام هو الأسلوب الأدبى الذى يرتقى إلى أجواء الشاعرية فى كثير من الأحيان، وإن أخذنا عليه أشياء سوف تنكشف لنا تباعا. ومن ذلك أسلوب السرد الذى يتصرف فيه الشرقاوى على نحو مخالف لكتب السيرة الاعتيادية. فكيف وقع السرد فى الحكاية التى نحن بصددها؟ لقد بدأت باستخدام ضمير الغائب، أى السارد العليم بكل شىء فى حكايته. لكننا نفاجأ فى بعض الأحيان بالسارد يتوجه بالخطاب إلى الشخص الذى يكون بصدد الحديث عنه مثلما فعل فى النص التالى عندما تغير بغتة اتجاه السرد من استعمال ضمير الغائب لعبد الله بن عبد المطلب إلى استعمال ضمير المخاطب وكأن بطل الحكاية واقف إزاءه فهو يخاطبه مخاطبة الصديق لصديقه، لينتقل السرد مرة أخرى من مخاطبة البطل إلى تركه يتكلم هو عن نفسه وعمن وعما حوله فى مناجاة ذاتية، وإن كان قد استخدم فى تلك المناجاة الذاتية ضمير المخاطب كأنه يتوجه بالكلام إلى سواه: "وخرج عبد الله يطلب رزقه ليعود إلى زوجته آمنة فيملأ بيتها بالخير الوفير، ويستقبل المولود الجديد. ليكن غلامًا يشد ساعدك يا عبد الله، ويسعى معك فى رحلة الشتاء والصيف! وليكن له إخوة عشرة تستقوى بهم فى قريش! لكم كنت تريد أن تقيم مع زوجتك آمنة حتى تضع ولدها، ولكنها توشك أن تضعه وأنت ما تزال فى البلد النازح! لشد ما يعبث بك القضاء! ولكنها إرادة آلهة الكعبة! (حيرتنا معك يا شرقاوى! أهو القضاء أم إرادة الآلهة؟) عندما كنت صغيرًا (الحكاية كلها لا تزيد عن أشهر. فكيف يكون صغيرا قبل ذلك الوقت القصير؟) أوشكت أن تُذْبَح ليرضى كبير الآلهة عنك وعن أبيك. ولكن الآلهة قبلت فيك مائة بعير. مائة بعير افتدت حياتك. ولو أنها لديك الآن لأصبح لك فى قريش شأن آخر ولما اضطرتك الحاجة إلى أن نترك زوجة وحيدة تضع لك طفلك الأول وأنت بعيد! وها أنت ذا

تضرب فى الأرض من أجل الرزق بعيدًا عن مكة، البلد الذى ولدت فيه واخترته للحياة، وتتمنى أن تستلقى تحت ترابه بعد عمر طويل حافل! ولكن مكة الآن بلد يغشاه الوباء. لتنقذ الآلهة مولودك من هذه الغاشية! جاء الوباء مع أبرهة ملك الحبشة الذى أراد أن يستولى على مكة ويهدم الكعبة. ألم يسمع أبرهة أساطير الأولين؟ ألم يسمع ما بقوله الرواة فى طول الجزيرة وعرضها عن أبطال كانوا أشد منه بأسًا حتى لقد أخافوا الجن وشقوا الظلمات بسيوفهم وسيطروا على الريح ثم استكبروا على آلهة الكعبة فطاردتهم اللعنة، وقُضِيَ عليهم أن يعيشوا فى التيه مئات السنين؟ ولكن أبرهة لا يعى وإنه ليستعلى على الدنيا بحيوان ضخم اسمه الفيل تجفل الخيل منه. ويفر من آمامه الشجعان. وإنه ليقرع أبواب مكة يتقدمه هذا الفيل! لكم كان أبوك عبد المطلب حكيما يا عبد الله! هو حكيم ولا يخطىء أبدًا. أبوك الشيخ هذا تداعت قريش كلها إلى الفتال، فأدرك عبد المطلب أنهم لا قِبَلَ لهم بجيش أبرهة وبالفيل، فناداهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم إلى شعاب مكة حتى يزول الكرب, أما الكعبة فلها أرباب تحميها. وفى قصص الأولين عبرة! ولم يكد أبرهة يتقدم حتى عصف برجاله الوباء الذى كان يعصف بمكة، فإذا برجال أبرهة يتساقطون مرضى بالجدرى، ومعهم أبرهة نفسه, وما أغنى عنهم الفيل... وهكذا". وفوق ذلك فعبد المطلب، حسبما نقرأ فى كتب السيرة، لم يقل إن للبيت (أو الكعبة) أربابا تحميه كما جاء فى كلام الشرقاوى بل قال: "إن للبيت ربا يحميه". لكن الشرقاوى حريص، وإن لم يكن بارعا بما فيه الكفاية، على مثل هذه النخسات!

وكما جعل كاتبُنا الساردَ يوجه الكلام إلى عبد الله بن عبد المطلب ها هو ذا الكلام يتجه إلى ابن عبد الله محمد، ولكن مِنْ عَلُ، إذ يناديه صاحب الخطاب بـ"يا ولدى...". وهو أسلوب غير لطيف، إذ الواقع أن السارد هو فى حقيقته المؤلف مهما تغير الضمير الذى يروى لنا الحكاية. فماذا يريد الشرقاوى بهذا؟ أيريد أن يضع نفسه فى مرتبة أعلى من مرتبة محمد؟ فلنقرأ من بداية الفصل الرابع من الكتاب (ص47): غريب أنت يا ولدى فى هذا التيه الضارى الذى يتنفس باللعنة والأكذوبة والمنكر، شارد حزين لا تنفك تتأمل فى السموات والأرض ووجوه الرجال والنساء والأطفال. ما تكاد تضحك مستمتعًا بحياتك الجديدة المطمئنة مع المرأة الجميلة النقية الحكيمة التى اختارتك للحياة والموت حتى ينبثق من أغوار نفسك فجأة خاطر مبهم، فإذا ابتسامتك الآسرة تفيض على شفتيك، وإذا بنظراتك تخترق الصمت ويداك الكبيرتان تلوّحان فى السكون، وينتفض العرق النافر من جبينك العريض الناصع وتضىء ملامحك الحادة بشعاع رهيب وكأن نورا من الغيب يغشاك، فيبدو وجهك المتورد معذبا مُضْنًى على الرغم من كل شىء! أشاعر أنت يا بنى يأتيك هاجس من الخفاء؟".

ومن هذا الباب أيضا تصوير مشهد المسايفة بين حمزة ونوفل بن خويلد فى بدر: "ثم لمح (حمزة) نوفل بن خويلد يقاتل المسلمين ويثخن فيهم، ويدهس بفرسه جثث الضحايا حتى لقد أوشك أن يثير الرعب فى قلوب المسلمين، فأسموه: الشيطان. فيندفع حمزة إلى نوفل بن خويلد، ونوفل على فرسه خلف الدروع والزرد، ورأسه فى الدرقة. ويلكز نوفل فرسه ليدهم حمزة، ولكن حمزة يثب بعيدًا ويستدير ويضرب الفرس فيوقعه، ثم يتفادى ضربة من سيف نوفل. والمسلمون وأعداؤهم على السواء ينظرون ويترقبون فى لهفة نتيجة هذا الصراع الرهيب. ثم يكر حمزة على نوفل ويسدد سيفه إلى عنقه، ويخلُص حد السيف من بين الحديد والزرد، ويطير رأس نوفل. وهكذا انتصر حمزة على شيطان قريش، فاطمأنت قلوب كثيرة، وتدفق المسلمون بصدور حاسرة لا دروع عليها، ورؤوس مكشوفة يشدون على أعدائهم المدرعين. وريعث قريش فتراجعتْ" (ص176- 177). ولا يكتفى الشرقاى بهذا بل نسمع السارد يناجى حمزة مبديا إعجابه به وبإنجازه العظيم فى هذا القتال الذى جندل فيه بعضا من كبار قريش فى بدر: "ما أروعك يا حمزة! أنت الذى قدت هذه الفئة القليلة إلى النصر المحقق. أنت وحدك وقفت شامخًا صامدا تمنع قريشًا عن الماء، وجعلت همك أن تصرع الأقوياء من فرسان العدو. وعندما سقط الشجعان منهم سقطت همة الآخرين. إن بعض الفارين من رجال قريش ليتساءلون: من الرجل المعلم بريشة نعامة فى صدره يحجب وجهه دائمًا غبار المعركة؟ فيقول واحد منهم: إنه حمزة بن عبد المطلب. ويتنهد الباقون فى حسرة: ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل! حقًا لقد فعلتَ بهم الأفاعيل. كنت أنت وحدك جيشا بأسره!" (ص177).

ومن العوامل أيضا التى حولت السيرة فى يد الشرقاوى إلى عملٍ أدبيٍّ شاعريٍّ عاملُ اللغة. إنها لغة محكمة تسرى النفثات الوجدانية فى جنباتها بقوة فى كثير من الأحيان. وهو لا يدخل فى جدل حين يكون الموضوع يستدعى الدفاع عن قضية تتصل بمحمد والدين الذى جاء به بل يترك لسرد الوقائع وتصوير المواقف والشخصيات الحديثَ عما يريد تقريره فى النفوس. فمثلا حين كان محمد الصبى مع عمه فى قافلة التجارة القرشية المتجهة إلى الشام ألفينا الشرقاوى يورد لقاء راهب نصرانى به وتناول الصبى طعام الراهب مع رجال القافلة على النحو التالى: "عاد إلى مكة مع القافلة بعدما التقى براهب نصرانى فى الطريق. لقد أعجب به الراهب وأثنى عليه ودعاه إلى طعامه مع الكبار حين حاول الكبار أن يؤخروه. عاد يرعى الغنم ويطوف بالكعبة، والأيام تتقدم به إلى أول الشباب".

فانظر إلى الطريقة التى تناول بها الموضوع، موضوع التقائه بالراهب بحيرا، الذى اتخذ منه كثير من المستشرقين والمبشرين فرصة افترصوها للكيد لسمعة محمد ودينه والكتاب الذى نزل عليه من السماء،

فزعموا أنه أخذ هذا كله من بحيرا فى ذلك اللقاء. إن كاتبنا لم يحاول الدفاع عن الرسول وتفنيد التهمة السخيفة التى وجهها المجرمون إليه بل اكتفى بالإشارة إلى سن محمد الصغيرة أوانئذ بما يعنى أن صاحب هذه السن الغضة لا يمكن أن يكون مطمعا لبحيرا أو لغيره ليعلمه النصرانية فى ذلك الوقت الخاطف الذى قضاه محمد والقافلة فى ضيافة الراهب إن صحت الرواية أصلا.

ولو أراد الشرقاوى الرد على تلك الفرية لاتسع القول واستغرق الصفحات. لقد اتهم المستشرقون نبى الإسلام عليه أفضل الصلاة وأعطر السلام أنه قد تعلم أشياء من بَحِيرا. بل إن بعضهم يزعم كذبًا أنه عليه السلام قد سكن مع هذا الراهب أثناء إحدى رحلاته إلى الشام، وهو ما يدلك على أسلوب القوم فى محاربة الإسلام، إذ إن السيرة واضحة تمام الوضوح هنا، وليس فيها كلام عن ذلك على الإطلاق. وقريش نفسها، وقد كان منها من حضر واقعة اجتماع بحيرا بالصبى محمد، وهم رجال القافلة، إن صحت الرواية أصلًا، لم تتهم الرسول بذلك، فكيف يأتى الأوروبيون بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا فيتخيلون ويزعمون؟

إن واشنجتن إرفنج مثلا يفسر اهتمام بحيرا بالصبى محمد بأنه كان يريد تنصيره حتى إذا ما رجع إلى قومه قام هو بدوره بتحلية النصرانية فى عيونهم. لقد كان عمر محمد حينئذ اثنى عشر عامًا! ومع ذلك يزعم إرفنج هذا الزعم السخيف، وكأن لم يكن فى القافلة العربية، التى تقول الرواية إنها حطت رحالها قريبًا من صومعة بحيرا، رجال يمكن هذا الراهب أن يتوجه إليهم بدعوته. ولقد سفّه توماس كارلايل صاحب كتاب "عبادة البطولة والأبطال" احتمال أن يتعلم صبى فى هذه السن من راهب يتحدث لغة أجنبية شيئًا ذا بال. ومع ذلك كله فإن السيرة لم تتحدث عن أى تعليم بين بحيرا ومحمد. ثم فلنفترض أن بحيرا قد لقنه(بأية لغة؟ لا ندرى) أشياء من النصرانية، فأين كان بحيرا يوم ادّعى محمد أنه أتى بدين جديد يخطّئ فيه دين بحيرا؟ لماذا لم يَنْبَرِ بحيرا أو غيره ليكشف زيف هذا النبى ويبين المصدر الحقيقى لما يزعم أنه وحى من السماء؟ أكانت الدولة البيزنطية أو الدويلات العربية على حدودها تسكت على محمد وعلى مزاعمه ورسائله التى أرسلها إلى هرقل وغيره من ملوك العالم المحيطين بالجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام فلا تحاربه أو تحارب خلفاءه بهذه الورقة؟ إن ذلك لغريب! بل أكانت قريش متمثلة فى رفقاء الرحلة لتتركه دون تشنيع وهجو وإطلاقٍ للشائعات فى كل مكان لتدمير الدين الجديد والرجل الذى أتاهم به؟

على أن اللغة المحكمة القوية الشاعرية فى الكتاب لا تخلو من بعض الهَنَات كما سبق القول. ومن هذه الهنات قول الشرقاوى مثلا: "فى الرحاب الشاسع من أرض مكة" (ص31). و"الرحاب" جمع "رحبة" وليست مفردا مذكرا، وعلى هذا لا نقول: "الرحاب الشاسع" بل "الرحاب الشاسعة/ الشاسعات". ومن الممكن مع هذا أن تكون التاء التأنيثية قد سقطت من آخر الصفة: "الشاسع" على يد الطابع لا المؤلف. من الممكن!

ومن تلك الهنات أيضا أنه، فى بعض الأحيان"، يقول مثلا إن "الناس ضربوا بعضهم" بدلا من "ضرب بعضهم بعضا"، وهو التركيب الذى نقابله فى الكتاب أيضا، ولا ندرى كيف لم يجر عليه الشرقاوى من أول الكتاب إلى آخره. وهذه بضعة أمثلة على هذا التركيب العامى: "ويلتصقون ببعضهم فى البيت الحرام/ ص53"، "نرفع سلاحنا على رقاب بعضنا/ ص89- 90"، "رجال من المهاجرين يعتدون على حدود بعض/ ص158"، "إنكم لأولى الناس ببعض/ ص183". وهذه أيضا أمثلة من التركيب السليم: "فمضوا يهنئون بعضهم البعض بالنصر/ ص179"، "وتحدث بعضهم إلى بعض عن الأمر/ ص183"، "وانطلقوا يتحدثون ويداعب بعضهم البعض/ ص230".

ومن هذه الهنات كذلك تنوينه "شبعانًا" (ص62) رغم كونها ممنوعة من التنوين لوصفيتها وانتهائها بألف ونون زائدتين، وقوله: "صحب (الرسولُ) غلامَه زيدَ بنَ حارثة إلى الطائف/ ص111"، والصواب "اصطحب" لأنه عليه السلام هو الذى أخذ زيدا معه لا العكس. ومنها "وأعلن أبو ذر أنه لَيؤمن بكل هذه التعاليم/ ص109"، "وأن معها الآن لَخلفاءَ جُدُدًا/ ص299"، "فأعلن أنها لمُعْجِزات النبوة/ ص341". ووجه الصواب فى هذا التركيب واحد من اثنين: فإما حذفنا اللام الداخلة على خبر "أن" وإما كسرنا همزة "أنّ" إلى "إنّ". أما الجمع بين فتح همزة "أَنَّ" ودخول اللام على خبرها فى ذات الوقت فهذا فى حدود علمى لا يصح.

ومن تلك الهنات كذلك قوله: "عليهم ألا يخوضوا الحرب مهما يَلْقَوْنَ/ ص147"، والصواب "مهما يَلْقَوْا". ومنها "حتى ليوشكوا/ ص150". وصوابه "حتى ليوشكون" بالنون لأن اللام تحول دون نصب المضارع. ومنها "تقدم خالد بنفسه إلى المرأة ليؤكد لرجاله أنها مثلُهم من لحم ودم لا روحًا خالدةً/ ص324"، وتصويبها هو "لا روحٌ خالدةٌ" لعطفها على "مثلُهم" المرفوعة على الخبرية لـ"أَنَّ". وغلطة أخرى: "سيخرج محمد ذات يوم مع صحبه فيَلْقَوْا قريشا/ ص165"، والصواب "فيَلْقَوْن" لعطفه على

"سيخرج"، وهو مضارع مرفوع، فيُرْفَع مثله. وغلطة أخرى أيضا: "... وأن فيهم أبا جهل وعمرو بن هشام... وآخرون/ ص170"، والصحيح "وآخرين" للعطف على "أبا جهل..."، وهو منصوب لكوه خبر "أن" متأخرا، والمعطوف يأخذ الحكم الإعرابى للمعطوف عليه حسبما نعرف كلنا. ثم غلطة أخرى كذلك: "وما كان له (أى للرسول) أن يتزوج امرأة متبنّيه/ ص192"، والصواب "امرأة متبنّاه"، وهو زيد بن حارثة، وكان الرسول مُتَبَنّيَه، فالرسول هو المتبنِّي، وزيد هو المتبَنَّى. فإذا أضيفت "مُتَبَنًّى" إلى الهاء كانت "متبنَّاه" بصيغة اسم المفعول. وزوجة متبنَّاه هى زينب بنت جحش ابنة عمة الرسول، التى تزوجها عليه السلام بعد طلاقها من زيد.

وفى لغة الشرقاوى كثير من العبارات والتراكيب والمفردات القديمة الجزلة التى تملأ الفم لقوتها وعراقتها وجلالها وعبقها التاريخى، وبعضها قرآنى ونبوى. وهذه أمثلة على ذلك: "قال رجال فى المدينة/ ص149" (فى القرآن: "وقال نسوة فى المدينة")، "أم يريدون كيدا؟/ ص164" (فى القرآن: "أم يريدون كيدا؟ فالذين كفروا هم المِكِيدُون)، "ما بال رجال المدينة لا يغضبون؟/ ص164" (فى حديث النبى عليه السلام: "ما بال أقوام...؟")، "ويسقط فرسان قريش دون الماء (فى الأسلوب العصرى: لم يستطيعوا بلوغ الماء)- أرتال الفرسان (صفوف الفرسان)/ ص175"، "خَلَصُوا نَجِيًّا (اختلَوْا بأنفسهم ليتناجَوْا فيما بينهم)/ ص220)"، "قرر أبو سفيان ألا يحارب من عامه هذا (ألا يحارب فى ذلك العام)/ ص230"، "تُزْرِى على أبى سفيان (تعيبه وتنال من كرامته)/ ص231"، "أذَّن بالناس أن ينزلوا فلْيشربوا (نادى فى الناس أن ينزلوا ويشربوا)/ ص276"، "ولَهُوَ يوقّع الصلح إذْ برجل مصفَّد يرسُف فى الحديد (وبينما كان يوقع الصلح إذا برجل مقيد القدمين يمشى بصعوبة متقارب الخطا...)/ ص281"... ومع هذه الجزالة والعتاقة قابلتنى فى الكتاب عبارة عامية مصرية فُصِّحَت فصارت "ما فى القلب فى القلب/ ص228. وأصلها "اللى فى القلب فى القلب" بمعنى أن العلاقات الطيبة ظاهريا لا تعنى أن القلوب قد صفت بل هى على ما كانت عليه لم تتغير".

كذلك يستخدم الشرقاوى فى كتابه ألفاظا وعبارات ومصطلحات عصرية كـ"اقتصاديات الدولة، الثقافة، المثقفون، الحضارة، حرب الشائعات، الحرب الباردة، يحمل (فلان) مسؤولية التنوير، يلقى عليها درسا (أى ينبهها بالعقاب حتى لا تفعل ذلك كرة أخرى)، قُوَى الظلام (قوى التخلف والاستبداد الفكرى)". وقد تكرر وصفه لهذا الصحابى أو ذاك بأنه مثقف واسع الثقافة. بل لقد استعمل هذا الوصف لبعض زوجات الرسول. وهو أمر طريف ومنعش، إذ تستخدم هذه الكلمة هنا فى سياق جديد لم يعهد

القارئ ورودها فيه: "فليس الأراذل والعبيد والبغايا والمستضعفون هم الذين اعتنقوا هذه التعاليم وحدهم، ولكنْ هناك أيضًا تجار كبار طيبون وسادات فى قومهم ومثقفون كبار، مثقفون لم تعرف قريش مثلهم، كلهم آمنوا بمحمد هم ونساؤهم بنات الأسر الكبيرة العريقة فى قريش" (ص74)، "وما زال أبو بكر بصحبه من مثقفى مكة وسادتها حتى اقتنع عثمان بن مظعون، وهو من حكماء قريش وكبار أغنيائها، واقتنع الأرقم بن أبى الارقم. وبلغ عدد الذين اقتتعوا بتعاليم محمد نحو أربعين رجلا وامرأة منهم العبيد والأجراء والصعاليك والبغايا والجوارى والضعيفات والذين طحنتهم الأوضاع الاجتماعية القائمة والمثقفون وبعض التجار الأغنياء" (ص84)، "لقد صبر محمد كثيرا عليهم، ولكنه لن يصبر على صدهم الشعراء عنه. إلا الشعراء! فهو رجل يمجد الثقافة والمثقفين ويعرف خطر الشعراء، ويتمنى أن يعتز بهم وينتصر. وإنه ليعامل حسان بن ثابت برعاية خاصة لا يعرفها أقرب الناس إليه" (ص155)، "هند بنت أمية... استشهد زوجها بعد أن ترك لها مع الأسى والدمع المتصل ولدهما سلمة. وكانت فى الثلاثين جميلة مثقفة بكل جمال تلك السن وبكل النضج الذى تمنحه الثقافة. لكم تشبه فى جلالها وشموخها زوجته العزيزة الراحلة خديجة!" (ص218)...

وبالنسبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام لا نجده يقول عنه إلا "محمد"، ولا "رسول الله" أو "نبى الله" أبدا ولا "صلى الله عليه وسلم" ولا "عليه السلام". وهو مهتم جدا بإبراز الجوانب الحضارية العملية فى الإسلام، فنراه يلح على قيم العمل والإنتاج والسعى فى طلب العلم إلحاحا. وهو كثير الحديث عن الطبقية واستغلال الأغنياء للفقراء والرغبة فى الحصول على كل شىء إن أمكن. كذلك نراه قد كرر الحديث عن ارتياد النبى عليه السلام للبلاد واطلاعه على أحوالها الدينية ومقابلة رجال دينها ومعرفته بطوائفهم ومذاهبهم، وكأن الرسول كان يزور هذه البلاد بوصفه أستاذا زائرا أو باحثا يجمع مادته العلمية لا تاجرا ينشغل ببضاعته وتسويقها واستيراد الطارف المطلوب فى بلاد العرب منها... وهكذا حتى لقد سمع بهيباتيا الفيلسوفة المصرية التى قتلها الجماهير بتحريض من القساوسة والرهبان النصارى. وهذا عجيب. ولا أدرى إلام يقصد الشرقاوى بمثل هذه الأشياء. والحمد لله أنه لم يقل إن رجال الدين النصارى قد رشحوا محمدا لنيل درجة الدكتوراه الفخرية فى فلسفة الأديان! وتبحث عن نأمة من تلك الأمور فى كتب التاريخ والسيرة فلا تجد شيئا منه مطلقا. بل نحن لم نسمع بهيباتيا هذه إلا بعد صدور "عزازيل" ليوسف زيدان وحديث روايته (المتهم من قبل بعض الكتاب بأنه أخذها عن كاتب بريطانى) عن تلك الفيلسوفة المصرية الجميلة ومقتلها الشنيع على أيدى الجماهير بناء على تحريض رجال الدين النصارى عليها.

وقد استطاع الكتاب إثارة التشوق والفضول لدى قارئ الكتاب لما فيه من أسلوب محكم حار منعش ومن خيال طليق فى كثير من المواضع ومن تحليل جديد وُفِّق الكاتب فيه أحيانا، وجافاه الحظ فيه أحيانا أخرى لتركه خيالاته فى تلك الأحيان دون رقيب أو عتيد محاولا إلباس الإسلام ثوب الاشتراكية إن لم تكن الشيوعية.

وعلى الناحية الأخرى يلفى القارئ فى كتاب الشرقاوى طائفة من المآخذ الفنية منها على سبيل التمثيل مشهد مصاحبة النبى عليه السلام للرجل الغريب الذى ابتاع أبو جهل منه بضاعة ثم رفض أن يؤدى إليه ثمنها، ولم يرض أحد من قريش مناصرة التاجر المسكين بل دلوه على النبى سخرية منهم به واستهزاء بشخصيته لما يعلمون من بغض أبى جهل له وحرصه على إيذئه ويقينهم بأن الرسول سوف يعتذر عن نصرة الرجل أو يرده أبو جهل عن باب بيته محقورا مدحورا. لكن الرسول قام مع الرجل ودق باب الشارى الظالم المتجبر، فخرج إليه، وما إن سمع الرسولَ يقول: "أعط هذا الرجل حقه" حتى دخل وأحضر المال وأعطاه الرجل. لقد كان ينبغى أن يعلل لنا الشرقاوى سر استجابة أبى جهل لأمر الرسول له بتأدية ثمن البضاعة دون أية مماحكة على عكس ما كان متوقعا تمام المعاكسة.

كما غلبت على أسلوب الكاتب النزعة العاطفية والاهتمام بأن تكون اللغة أدبية تسودها المبالغة حتى لتتوارى الحقائق التاريخية أو يتم تحويرها بل تحريفها فى غمرة الاندفاعة العاطفية تلك. ويلمس القارئ هذا منذ أولى فقرات الكتاب، الذى يبدأ بواقعة نجاة عبد الله بن عبد المطلب من نذر الذبح على ما هو معروف لنا من وقائع السيرة النبوية.

وأول ما نقف عنده هو الفقرات الأولى من الكتاب حيث يقول الأستاذ الشرقاوى عن عبد الله والد الرسول بعد نجاته من التضحية به تنفيذا للنذر الذى نذره عبد المطلب قبلا فى الحكاية المشهورة (ص13 فَتَالِيًا): "ها هو ذا يستقبل الحياة مرة أخرى بعد نضال طويل مع المصير! لكأنه يولد فجأة من جديد بكل فتوته وأشواقه وأحلامه وقامته المديدة وصوته الطيب المفعم وأمله المعذب فى الخلاص! لم تكن له حيلة فى كل ما حدث، ولا حيلة لرجل فى مكة على الاطلاق لأن المصادفة وحدها هى التى تخط أقدار الرجال والنساء. ومن وراء هذه المصادفة العمياء يقف تمثال أصم اسمه مناة. إلهة بلا قلب هى التى تملك القضاء. وإلى جوارها يتشامخ تمثال هُبَل رب الأرباب، رب المصادفة والمصير والقدرة، وشيخ مناة نفسها، وشيخ زميلتيها اللات والعزى! أية مقاومة يملكها فتى مثله أمام كل هؤلاء الأرباب؟ أيملك هو،

عبدالله بن عبد المطلب، أن يطلق صرخة احتجاج على هذه القوى التى تحرس الكعبة منذ القدم والتى يستمد منها أبوه عبد المطلب مبرر وجوده، والتى ما زال يمتثل لها مع أبيه كل الملإ من قريش؟ على أن المصادفة أنقذت حياته على أية حال بعدما أوشك دمه أن يسيل تحت أقدام تماثيل الآلهة الرهيبة التى تجرؤ على أن تحرم فتى فى مثل سنه وعنفوانه من طيبات الحياة! وإنه الآن ليتشبث بيد أبيه عبد المطلب ليمضى معه إلى الدار بعد أن وُهِب الحياة مرة أخرى، وكأنه يوسف، الذى سمع قصته من فلسطين فيما سمع من قصص الغابرين خلال رحلاته مع القوافل! لكأنه يوسف يرتمى فى أحضان أبيه الصابر المضنَى بدفء الأبوة بعد طوافه الطويل المشرد فى أرض الغربة! وعبد الله إذ ذاك هو أصغر ولد عبد المطلب وأحبهم اليه. وكان عبد المطلب، قبل أن يرزق الولد، قد تعرض لبلاء كثير، وما من ولد يسانده، حين همّ بان يحفر بئر زمزم. خاصمته قريش فى البئر وأزرت عليه، ولكنه استمر بحفر البئر وحده حتى تفجر الماء منها كما كان على عهد اسماعيل. وبلل عبد المطلب جبينه من الماء واتجه إلى آلهة الكعبة فنذر لَإِنْ رضيت عنه الآلهة ووُلِدَ له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى منعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة شكرانا وقربى!

فلما بلغ بنوه عشرةً بمولد عبد الله، وأدرك أصغرُهم عبدُ الله مبلغَ الرجال، وتيقن عبد المطلب أن ولده مانعوه، جمعهم ليخبرهم بنذره ودخل بهم على هبل كبير آلهة الكعبة، وبدأ يجرى القرعة بضرب القداح لينحر أحدهم وفاء بالنذر. وخرج القِدْح على الفتى عبد الله أصغر ولد عبد المطلب وآثرهم لديه. ولم يستطع الشيخ أن يصنع شيئًا، وقام إلى عبد الله ليذبحه تحت قدمى هبل فخف إليه بنوه يحاولون أن يستخلصوا دم أخيهم. ولكن عبد المطلب زجر بنيه جميعًا ودفعهم بيده وهو يحذرهم من الاعتراض على قضاء الآلهة! وتدافع إليه بعض صحابه الذين كانوا يجلسون فى رحاب الكعبة وألحوا عليه أن يتمهل لعلهم أن يَرَوْا رايا ينقذ رأس الفتى عبد الله، ويرضى هبل. ولكن عبد المطلب لم يصغ اليهم فانطلق صوت حانق فى وجه عبد المطلب: لَإِنْ فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتى بابنه حتى يذبحه. فما بقاء الناس على هذا؟

كان هذا الاحتجاج نفسه يصرخ فى أعماق كل الآباء الذين التقوا بعبد المطلب ينصحونه ألا يذبح ابنه إرضاءً لهبل، وعرضوا عليه أن يفتدوا عبد الله بالمال. ولكن لا! الولد يجب أن يذبح تحت قدمى هبل ما دام القدح قد خرج عليه! كم من الصرخات تدوى الآن فى أعماق عبد الله! إنه ليرفض هذا القضاء، ويرفض أباه، ويرفض هبل نفسه! ولكنه لا يقوى بعد على الكلام! وطال الجدل بين عبد المطلب وبين صحابه، فافترح أحدهم أن يرحلا إلى عرافة يثرب فيسألونها قبل أن يذبحوا عبد الله عسى أن تقضى

بأمر لهم فيه فرح! وغَدَوْا عليها من اليوم التالى، فسألتهم عن دية الرجال فيهم، فأجابوها: عشرا من الابل. فقالت لهم: ارجعوا إلى بلادكم ثم قرّبوا صاحبكم من هبل وقرّبوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح: فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم. وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم. وعادوا إلى مكة مستبشرين، وعاد عبد المطلب يضرع وهو قائم عند هبل، وقد قدم ولده عبد الله وعشرا من الإبل. وضربوا القداح، فخرجت على عبد الله، فزادوا الإبل عشرا، وعبد المطلب يدعو، والقداح تضرب من جديد، فيخرج القدح على عبد الله أحب ولده إليه، فتزاد الابل عشرًا أخرى، والقداح تضرب، وعبد المطلب قائم يدعو حتى بلغت الإبل مائة، فخرج القِدْح على الإبل!

ودوت فى أرجاء الكعبة رنة فرح بنجاة عبد الله، وقام عبد الله يحملق فى أبيه وإخوته والرجال والأصنام وكل ما حوله كأنه يرى العالم لأول مرة. وصاح عبد المطلب فى نشوة: انحروا الإبل المائة جميعا واتركوها للآكلين لا يُصَدّ عنها إنسان ولا سبع! وينطلق عبد المطلب آخذًا بيد ولده عبد الله. وها هو ذا يستقبل الحياة مرة أخرى بعد نضال طويل مع المصير".

هذا نص ما كتبه عبد الرحمن الشرقاوى. ولكن جاء فى الحديث: "حضَرْنا مجلِسَ مُعاويةَ بنِ أبى سُفْيانَ، فتَذاكَرَ القَومُ إسْماعيلَ وإسْحاقَ بنَ إبْراهيمِ، فقالَ بَعضُهم: الذَّبيحُ إسْماعيلُ. وقالَ بَعضُهم: بل إسْحاقُ الذَّبيحُ. فقالَ مُعاويةُ: سَقَطْتُم على الخَبيرِ. كنّا عندَ رَسولِ اللهِ ﷺ، فَأتاهُ أعْرابى فقالَ: يا رَسولَ اللهِ، خلَّفْتُ البِلادَ يابِسةً، والماءَ يابِسًا. هلَكَ المالُ وضاعَ العيالُ، فعُدْ على بما أفاءَ اللهُ عليكَ يا ابنَ الذَّبيحَينِ. قالَ: فتبسَّمَ رَسولُ اللهِ ﷺ ولم يُنكِرْ عليه، فقُلْنا: يا أميرَ المؤمِنينَ، وما الذَّبيحانِ؟ قالَ: إنَّ عبدَ المطَّلبِ لما أمَرَ بحَفْرِ زَمْزمَ نذَرَ للهِ إنْ سهَّلَ اللهُ أمْرَها أنْ يَنحَرَ بَعضَ ولَدِه، فأخْرَجَهم، فأسْهَمَ بيْنَهم، فخرَجَ السَّهمُ لعَبدِ اللهِ، فأرادَ ذَبْحَه، فمنَعَه أخْوالُه من بَنى مَخْزومٍ، وقالوا: أَرْضِ ربَّكَ، وافْدِ ابنَكَ. قالَ: ففَداه بمائةِ ناقةٍ. قالَ: فهو الذَّبيحُ، وإسْماعيلُ الثانى"[3].

ففى نص الشرقاوى أن نذر عبد المطلب كان للأصنام، أما فى الحديث فقد توجه عبد المطلب إلى ربه بالنذر. كما أنه فى الحديث لم يتوجه إلى عرافة يثرب أو غير يثرب. وهل كانت مكة بلا عرافات حتى يتجشم عبد المطلب هو ومن معه كل تلك المسافة بين مكة ويثرب؟ كذلك لم تكن هناك قداح ولا يحزنون بل اقترح عليه أصهاره منذ البداية أن يفدى ابنه بمائة من الإبل. هكذا بكل بساطة.

فمن الواضح أن ما كتبه الشرقاوى لا يتناغم مع ما جاء فى الحديث، لكنه يتناغم أكثر مع رواية السيرة. والغريب أن تقول كتب السيرة إن الذى منع عبد المطلب من نحر عبد الله رجالات قريش. أليس هؤلاء الرجال هم الذين نازعوه فى حفر زمزم وتركوه يحفرها وحده؟ فما بالهم اليوم، وقد رزق بعشرة بنين بعد أن لم يكن له ولد وقت الحفر، ينسَوْن خصومتهم له وينسَوْن ما هو فيه من منعة ويحضونه على عدم نحر ابنه؟ لقد كان عكس ذلك هو المتوقع. وفى السيرة أيضا أنهم كانوا إذا أرادوا حفر بئر ضربوا بالقداح، بيد أننا ننظر فلا نرى لا عبد المطلب يضرب بالقداح عند تفكيره فى حفر زمزم ولا رجالات قريش يعرضون عليه التحاكم إلى القداح. لا بل زادوا فأخبروه أنهم سوف يفدون ابنه بالمال مهما غلا. أليس هذا غريبا على قوم كارهين لحفره بئرزمزم وانفراده بهذا الشرف دونهم؟ ولعلنا لم ننس أن عبد المطلب حين غزا الأحباش مكة ليهدموا كعبتها قد استغاث بالله ولم يفكر فى اللجوء إلى الأصنام، إذ أمر قريشا بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب تخوفا عليهم من معرّة الجيش ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قومه يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهُمّ إن العبد يمـ ـنع رحله، فامنع حَلَالَكْ

لا يغلبنّ صليبُهم ومِحَالُهم غدوًا مِحَالَكْ

إن كنت تاركهم وقبـ ـلتنا فأْمُرْ ما بدا لكْ

كما جاء فى سيرة ابن هشام[4]. فكيف يلوذ بالأصنام لتخرجه من الحيرة التى هو فيها عند عزمه على نحر ابنه؟ ومعروف أن كتابة السيرة لم تكن تخضع للضوابط التى يخضع لها الحديث. ومن ثم لقد كان على الشرقاوى أن يرجح الأخذ بالحديث ما دام يضع فى ذهنه كتابة ترجمة للرسول عصرية تخاطب إنسان عصرنا هذا وتجعله يقبل على محمد بدلا من النفور منه. فهل مما يتسق مع هذه الغاية أن نأخذ برواية السيرة ونهمل رواية الحديث؟ إن الأخذ بالحديث ليتماشى مع المنطق ويرضى الضمير أفضل من السيرة. إلا أن كاتبنا آثر تبنى الخرافة على المنطق والعقل، بينما فى أمور المعجزات أخذ بالتفسير المادى للأحداث وتصرفات الأشخاص. عجائب!

ثم إن هبل وثلثه لم يكونوا هم المتحكمين فى مصائر البشر كما يقول الشرقاوى مرارا، بل الخرافات التى تسكن عقول البشر. أما الأصنام فلا تعقل ولا تفكر ولا تتحرك ولا تسمع ولا تتكلم. كما أن هبل وجماعته لم يكونوا وراء نذر عبد المطلب ذبح ابنه بل عبد المطلب نفسه. كذلك لم يكن هبل وبقية الأصنام هم الذين اقترحوا على عبد المطلب الحل السعيد بل عرافة يثربية. فكيف يلح الشرقاوى على أن هبل وسائر أصنام الكعبة كانوا يتحكمون فى مصائر البشر هناك؟ ولكن كيف يتمشى ذلك مع ما جاء فى حكايتنا هذه حين أراد عبد المطلب أن يفدى ابنه عبد الله، فهاج أهل مكة وضغطوا عليه كيلا ينفذ نذره، بما يعنى أنهم لم يكونوا يستسلمون للمصير الذى ترسمه لهم الأصنام؟

ولنصدق جدلا ما قاله عن سلطان الأصنام على الناس هناك إلى هذا الحد الذى صوره فى كلامه، فهل كان الناس فى مكة لا يقتربون من زوجاتهم مثلا إلا إذا استشاروا هبل وزمرته؟ هل حين ينزل لهم طفل من بطن أمه يذهبون فيستفتون هبل والهبليين فى أمر الإبقاء على حياته أو وأده؟ هل كان تجار القوافل مثلا يعلقون سفرهم على موافقة هبل أو رفضه؟ وهل كانوا إذا أرادوا تزويج ابنهم استشاروا هبل؟ وهل كان أهل الفتاة المراد خِطْبَتها يعلقون موافقتهم أو رفضهم للخاطب على القداح وحكم الأصنام؟ وهل عندما أتاهم محمد برسالته راحوا فسألوا هبل: أيؤمنون به أم يردون دعوته؟ ليس هناك أى ذكر لشىء من هذا فيما بلغنا من أخبارهم أوانئذ. واضح بل ساطع أن الشرقاوى فضل الأخذ بالكلام العاطفى المدندش على كلام المنطق الذى يقبله العقل راميا بذلك خلف ظهره ما كان قد ذكره فى مقدمة كتابه.

ولكى يقتنع القارئ أكثر وأكثر بما قلته له عن تهافت كلام الأستاذ الشرقاوى أحيانا أحيله إلى النص التالى من كلامه هو نفسه بعد قليل من نصه السابق: "وإذ كانت مكة فى واد غير ذى زرع فقد اعتمدت الحياة الاقتصادية فيها على التجارة، وأصبحت يوما بعد يوم مدينة تحكم التجارة فيها كل العلاقات الاجتماعية. وأقيم بناؤها الروحى والدينى على أساس البيع والشراء والربح، وأصبح التجار الكبار فيها هم الحاكمون. التجار الكبار هم الملأ الأعلى. فهم ينشنون القواعد ويفرضون التقاليد التى تصون لهم مصالحهم فى المعاملات. وهكذا قضوا بأن من مات فى مكة من التجار الأغراب ورثته مكة، ورثه الذين كانوا يتعاملون معه فى مكة من تجار قريش! أصبحوا هم المالكون وهم الوارثون! وقضوا على من يستدين أن يقدّم إلى دائنه رهنا عزيزا عليه" (ص18).

إذن فليست الأصنام هى التى تتحكم فى أحوال الناس فى مكة بل كبار التجار. وإذن فما كتبه عن عبد الله والد الرسول عليه السلام وكيف أن الأصنام وكبيرهم هبل هو الذين يوجهون مصائر الناس ويحددونها هو كلام فارغ طبقا لهذا النص. وهكذا يرى القارئ أن النزعة العاطفية عند المؤلف هى المسؤولة عن ذلك التهافت الفكرى والتناقض فى الأقوال حتى بين المتقارب بل المتعاقب منها كما رأينا آنفا وكما فى الفقرات التالية التى تحكى ما وقع عقب ذلك لا تفصل بين الواقعتين فاصل.

قال الشرقاوى (ص16– 17): "ولم يكد عبد الله يمضى فى طرقات مكة مثقل الرأس بأحلام الخلاص، ونظراته تتأمل فى نهمٍ كل ما أوشك أن يحرم منه، حتى لاحت له امرأة شابة بديعة الجسد فاخرة الثياب بوجه كفلقة القمر! وتأملته المرأة الصغيرة فى إقباله على الحياة التى عاد إليها الآن، وحاولت بلا جدوى أن تقتنص نظراته التى يسطع فيها وهج الشوق إلى المستقبل. وهج غريب آسر. وتخففت من بعض ثوبها فبانت استدارة كتفيها ونصاعة نحرها، وتقدمت إلى عبد الله، ونظراتها تقرأ على وجهه وفى أغوار عينيه سرا غامضًا حبيبا مؤسيًا يتزع بها اليه. وابتسمت وهى تعترض طريقه وسألته: إلى أين يا عبد الله؟ فقال لها وهولم يفق بعد من كل ما مر به فى الكعبة: أنا أذهب مع أبى. فقالت وهى لا تخفل بوجود أبيه: لك مثل الإبل التى نُحِرَتْ من أجلك إن تزوجتنى الآن.

وتأملها عبد الله فى حيرة، وقد بدأ يستعر فى أطوائه شغفه بطيبات الحياة التى أوشك أن يحرم منها! من تكون هذه المرأة التى تتعرض له فى الطريق وتدعوه اليها جهارًا دون أن تستحى من أبيه؟ ليست هى من هذا الصنف من النساء الذى يتعرض للرجال فى طرقات مكة. إن وجهها وما على جسدها من الثياب والجوهر وطريقتها فى الكلام وكل شىء فيها ينطق بأنها امرأة واسعة الغنى وذات إباء، ولكن ما فى عينيها الواسعتين الهادئتين حيث تطفو العفة والطيبة تلتمع جذور متقدة من الحساسية المرهفة والهيام الأنثوى واللهفة أيضا. وبهاتين العينين العامرتين سألته ألايرفضها فيحرجها. ولكن أباه جذبه من يده واندفع فى طريقه، فقال عبد الله وهو يتبع أباه: وأنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه. وانطلق وراء أبيه. وأوشك أن يستأذنه فى خِطْبَة المرأة التى تعرضت له، فهى امرأة صغيرة جميلة لم يعلم أحد عنها من سوء، وإنها لتقدم اليه مائة من الإبل. ولكن أباه كان قد قرر، منذ رأى إقباله على تلك المرأة، أن يخطب له فتاة بكرا من بنات أصحابه، فقد كبر الولد وهو جدير بعدما استرد نفسه من أظفار الموت بأن يحيا شبابه بكل ما فى أعوامه السبعة عشر من عنفوان. وبدلا من أن يعود عبد المطلب بابنه إلى البيت عدل عن

طريقه ومضى إلى دار وهب بن مناف سيد بنى زهرة فخطب ابنته آمنة لابنه عبد الله، ووافق وهب، وتزوج عبد الله وآمنة فى نفس اليوم. كان عبد الله قد جاوز السابعة عشرة بقليل، وآمنة أصغر منه بنحو عامين.

وفى صباح اليوم التالى خرج عبد الله من عند زوجته آمنة بنت وهب واتجه إلى الكعبة. وفى الطريق إلى الكعبة قابل الحسناء التى عرضت عليه نفسها بالأمس. ونظر اليها فلم تكلمه، وابتسم فأعرضت مغضبة. فقال لها: مالك لا تعرضين على ما كنت عرضت بالامس؟ فأجابته بجفوة: فارقك النور الذى كان معك بالامس، فليس بى لك اليوم حاجة. وانصرف عنها وهى تهمهم:

فلما قضتْ منه أمينةُ ما قضتْ نَبَا بصرى عنه وكَلَّ لسانى"

هذا ما ذكره الشرقاوى. والآن تعالَوْا لنحلّل ما كتبه الشرقاوى القصاص والمسرحى والشاعر والسياسى والكاتب الصحفى المصرى المشهور. وهو كلام مضحك بل يبعث على القهقهة وفحص الأرض بالقدمين. وأول شىء هو: من تلك المرأة؟ لا أحد قد أجاب على هذا السؤال. ويبدو أن الأرض قد انشقت فطلعت منها تلك المرأة ثم عادت فانشقت وابتلعت المرأة، وانتهى أمرها فلم يعد أحد يتذكرها أو يأتى لها على سيرة. لقد كان ثم دور يحتاج إلى امرأة لعوب، فظهرت امرأتنا وقامت بالدور، وانفض السامر وانصرف الجمهور ونُسِىَ كل شىء.

على أن المسرحية لم تنته فصولها، إذ صور الشرقاوى فتاته وكأنها نجمة من نجوم السِتِكْس فى هوليوود. فهى تتصدى لعبد الله، وكأن عبد الله لم يكن بين يديها قبل ذلك ليل نهار فى ذلك البلد الصغير الذى يعرف فيه كل شخص كل شخص آخر. ولا تكتفى بالتصدى بل تكشف كتفها لكى يكون الإغراء يليق بهوليوودية أصيلة. ترى هل هناك امرأة عربية فى ذلك السياق تقدم على هذا؟ وزيادة على هذا نرى الكاتب لا يفكر فى التناقض الأبلق فى شخصيتها، إذ هى لعوب ذات دلال وغنج وجرأة غريبة وهيام أنثوى وبراعة فى اللعب بقلوب الرجال لا تستحى، وفى نفس الوقت يؤكد المؤلف عفتها وطيبتها وهدوءها وحساسيتها. كيف ذلك؟ علم هذا التناقض الصارخ لدن علام الغيوب! ثم من أين لها بمائة من الإبل تتصرف فيها بهذه الأريحية دون الرجوع إلى أهلها أو المبالاة بهم؟ وعبد المطلب، كيف فكر وهو راجع من الكعبة فى تزويج ابنه والذهاب فى الحال، دون تفكير أو تروٍّ، لدار والد آمنة، وإتمام الخطبة فى التو واللحظة ودخول عبد الله فى تلك الليلة. يقينًا لو كانت شَرْوَة طماطم لاستغرقت وقتا أطول من ذلك وأخذا وردا.

أليس كذلك؟ إن هذا هو ما يقولونه فى التعبير المصرى العامى: سمك! لبن! تمر هندى! وكأن هذا كله لا يكفى، إذ رأينا عبد الله يترك زوجته فى اليوم التالى ويخرج من البيت مخلفا إياها وحدها فى ملابس العرس، التى لا أدرى كيف جهزوها لها وزفوها لزوجها ودعوا المعازيم وطبخوا الطعام وأعدوا الشراب فى ساعات قلائل. ألا إن هذا لفلم هندى عجيب تم سلقه وعرضه بالتصوير السريع.

ومع هذا فيا قارئى الكريم، ما زال فى جَعْبة الحاكى من المضحكِ الجديدُ. ذلك أن عبد الله، وقد خرج لتوّه من لدن عروسه التى دخل بها منذ ساعات، ما إن رأى فتاة الأمس حتى رغب فى الاقتران بها. ولم لا، والخطبة والزواج والدخول بالعروس ودعوة المعازيم وتجهيز الطعام والشراب يتم فى عدة ساعات من الزمن؟ كيف بالله فكر عبد الله فى الزواج بثانية فى صبيحة بنائه بزوجته الأولى؟ وأين قوله إنه مع ما يفعله والده، ولن يتركه أبدا؟ ثم من يا ترى سمع الفتاة وهى تهمهم وحفظ بيت الشعر الذى همهمت به وسجله لنا؟ سيسارع المتعجلون قائلين إن الرواى هنا هو الراوى العليم بكل شىء. وفاتهم أن الشرقاوى يكتب تاريخا لا قصة أدبية من حقه التزيد فيها وتَرْك خياله يصول ويجول كما يشاء، فلزمه الالتصاق بالتاريخ، وبخاصة أنه يكتب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقبل ذلك كيف رفضت الفتاة أن تتزوجه صبيحة زيجته الأولى؟ لقد كان الأحرى بها أن تستميت فى أخذه من آمنة حتى تشعر بنشوة فوز المرأة حين تأخذ رجلا من زوجته ولو صارت لتلك الزوجة ضَرَّة؟ سيقال إن النور فارقه. والرد: وهل كانت تلك الهُولِيوُودِيَّة تبحث عن النور أم عن الفتى الشاب؟ إنها لم تكن لَزِيمَة مسجد تتبتل وتصلى وتصوم وتسبح الله وتمجده ليل نهار كى تبحث عن النور. ثم أى نور ذلك؟ إن الوجوه لا تشع نورا، وإنما هى صباحة الوجه أو التماعه شرفًا وبهجة، فكيف تفارق تلك الصباحة والالتماعة وجه عبد الله؟ أكان البارحة شريفا بانتسابه إلى عبد المطلب مبتهجا بنجاته من الذبح، واليوم لم يعد ينتسب إلى عبد المطلب وأصبح مع طلوع النهار مكتئبا لتلك النجاة يتمنى لو كانوا نحروه؟ ما هذا الكلام الذى لا يدخل المخ؟ ثم كيف تحولت آمنة فى بيت الشعر إلى أمينة؟ ومرة أخرى: من يا ترى تلك الفتاة العجيبة؟ أتراها كانت جنية تدلت من الهواء يوم نجاة عبد الله وزواجه، وارتفعت إلى طيات الأثير يوم الصباحية؟

سيقول القارئ إنك تحمّل الشرقاوى مسؤولية ما رواه الرواة عن ذلك الموضوع؟ وجوابى هو: أن الشرقاوى لم يكتف بما جاء فى الرواية الموجودة فى السيرة بل أضاف إليه بعض التحبيشات المثيرة ككشف البنت الهوليودية كتفها وحديثه عن هيامها الأنثوى وعفتها وطيبتها رغم ما فى ذلك من تناقض أبرزناه آنفا. ثم ألم يقل الشرقاوى إنه يكتب سيرة الرسول للعالم كله لا للعرب فقط بل ربما للعالم كله دون العرب،

وإنه سوف يترك الكلام عن معجزات ابن عبد الله؟ فكيف ترك معجزات الابن وأمسك بالخرافات المعْزُوّة للأب؟ أما أنا فأضرب صَفْحًا عن الحكاية كلها ولا أستطيع قبولها فضلا عن هضمها، سواء منها ما اشترك بين رواية السيرة ورواية الشرقاوى أو ما انفرد به سيادته. الحق أننا ينبغى لنا التخلص من عقولنا ومنطق البشر إذا شئنا أن نصدق هذه الحكاية. وكم فى السيرة رغم دورانها على حياة سيد البشر وشخصيته من خرافات وأحداث منفلتة الزمام. بل كم فى الأحاديث المنسوبة إليه صلى الله عليه وسلم من مبالغاتٍ وأكاذيبَ ومفترياتٍ التاريخُ برىءٌ منها كل البراءة.

وبعد ذلك نسمع عبد الله وهو يناجى نفسه ويذكر ما حدث بمكة لدن محاولة الأحباش غزوها رغم أنه كان قد فارق مكة مع القافلة المتجهة إلى الشام. ومن الواضح أنه، حسب الشرقاوى، كان على علم تام بما حدث بتفاصيله. ترى كيف عرف؟ هل كان معه هاتف محمول، وكانت آمنة تتصل به كل يوم عدة مرات تنبئة بنبإ أم القرى وبيتهما وما صنعه عبد المطلب لدى رؤيته جيش أبرهة. ودعنا من أنه يعزو اندحار الجيش الأبرهى لتفشى الجدرى قبل ذلك فى المدينة. وهو ما لا يتسق مع ما قاله القرآن. فالقرآن يعزو هزيمة الأحباش إلى أن الله أرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل جعلتهم بمشيئة الله كعصف مأكول. ومعنى هذا أن كارثة الحبش لم تكن جراء جدرى كان متفشيا فى مكة، وعرفها عبد الله وهو فى بلاد غير البلاد مما يستحيل حصوله فى تلك الأيام.

لقد أراد الأستاذ الشرقاوى أن يتجنب القول بالمعجزة، وهو حر فى ذلك، فكل إنسان ومعتقده. لكن لا ينبغى قلب الأوضاع ونسبة ما نزل بالأحباش وتفشى المرض القاتل فيهم إلى جدرى فى مكة لم يكن له وجود إلا فى خياله. لقد انتشر المرض البشع بين الأحباش ومنعهم من تنفيذ خطتهم الشنيعة، ولم يكن هناك جدرى فى مكة بل، طبقا لكتب التراث، انتشر الجدرى بعد هلاك الحبش لا العكس. جاء مثلا فى "الاشتقاق" لابن دريد خلال حديثه عن سويبط بن سعد ضمن رجال عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ما يلى: "زَعَمَ أهلُ السِّرة أنَّه (أى نبات الحرمل)لم يُعْرَف فى بلاد العرب حتَّى رُمِيَت الحبشةُ عامَ الفيل، فلمَّا انقضى أمرهم أصابَ الناسَ الجُدرى والحَصْبة، فكانوا يعالجونه بُمَرار الشَّجر: الحنظل، والحَرْمَل، والعُشَر..."[5]. وفى "البداية والنهاية" لابن كثير: "وقال فى قوله: "طَيْرًا أَبَابِيل" قال: طير خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع فلم تزل ترميهم حتى جدرت جلودهم، وما رؤى الجدرى قبل يومئذ، وما رؤى الطير قبل يومئذ ولا بعده"[6].

وفى "السيرة النبوية" لابن هشام: "أرسل الله تعالى عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا... فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل، وأصيب أبرهة فى جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنامله أنملة أنملة كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مدة تمث قيحا ودما حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون. قال ابن إسحاق: حدثنى يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام وأنه أول ما رؤى بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعُشَر ذلك العام"[7].

فلم يقل أحد إنه كان هناك جدرى فى مكة وإن أبرهة وجيشه قد التقطوا العدوى من أهل مكة طبقا لكلام الشرقاوى، الذى لا يقوم على أساس تاريخى ولا على ما قالته سورة "الفيل". وقد قال محمد عبده فى تفسير تلك السورة فى ضوء ما قيل من أن الذى أصابهم هو داء الجدرى والحصبة: "وقد بيَّنت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش، بواسطة فِرَق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح. فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس، الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسده دخل فى مسامه، فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه. وإن كثيرًا من هذه الطيور الضعيفة يُعَد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وإن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بـ"الميكروب" لا يخرج عنها، وهو فِرَق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها، ولا يتوقف ظهور أثر قُدرة الله تعالى فى قهر الطاغين على أن يكون الطير فى ضخامة رؤوس الجبال، ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها. فلله جند من كل شىء

وفى كل شىء له آيةٌ تدل على أنه الواحد".

وسواء أوافقنا الشيخ محمد عبده فى كل ما قال أو فى بعضه أم خالفناه فيه جميعا فإنه رحمه الله لم يقل خلال تفسيره للسورة المذكورة قط إنه كان فى مكة قبل الهجوم الحبشى عليها جدرى منتشر التقطه

الأحباش. والشيخ معروف بانفتاحه على التفسير العلمى للقرآن الكريم حسبما يتضح من حديثه هنا، ومع هذا لم يقل بإصابة العدوى للحبش على الإطلاق. لماذا؟ لأنه لم يكن هناك جدرى قبل الهجوم. معنى ذلك أن الشرقاوى لا يكتفى وحسب بإدارة وجهه للتفسير الإعجازى لهلاك الأحباش على مشارف مكة بل يزيد على ذلك اختراعه تاريخا من لدنه وليد الخيال والعناد. وكان من الممكن أن يقول إن أبرهة قد هزم وارتد عن مكة بعدما ظهرت به بثور وقروح كانت سببا فى هلاكه. وبذلك يرضى ما فى نفسه من إنكار المعجزة ولا يخالف التاريخ بدلا من هذا الاختلاق العجيب غير المقبول. أما الخطأ التالى فهو خطأ جغرافى، إذ يقول إن النبى صلى الله عليه وسلم (قال الشرقاوى: "محمد" فقط من غير نبوة أو صلاة وتسليم) بعد بسط سيطرته على بلاد العرب عين عمالا للصدقات مسؤوليتهم جباية الزكاة وتوزيعها من اليمن فى أقصى الجنوب إلى نجران على حدود بلاد الرومان (ص339). وبلاد الرومان، أو على نحو أدق: البلاد التى كان يحتلها الرومان، وهى بلاد الشام، تقع فى شمال الجزيرة العربية. ومعنى ذلك أن نجران، حسب خريطته، تقع فى الشمال لا فى الجنوب، أى عكس موقعها الصحيح قريبا من اليمن فى الجنوب.

الهوامش

[1] عبد الرحمن الشرقاوى/ محمد رسول الحرية/ دار الشروق بالقاهرة/ 1410هـ - 1990م/ 10- 12.

Abd al-Rahman al-Sharqawi / Muhammad Rasul al-Hurriyyah / Dar al-Shorouq, Cairo / 1410H – 1990M / pp. 10–12

[2] المرجع السابق/ 216- 219 مثلا

Al-marja‘ al-sabiq / pp. 216–219, mathalan.

[3] الراوى: معاوية بن أبي سفيان: الحاكم/ المستدرك على الصحيحين (٤٠٨٤)/ سكت عنه وقال في المقدمة: رواته ثقات احتج بمثله الشيخان أو أحدهما.

Al-rawi: Mu‘awiyah ibn Abi Sufyan / Al-Hakim: Al-Mustadrak ‘ala al-Sahihayn (4084) / Sakata ‘anhu wa qala fi al-muqaddimah: Ruwātuhu thiqāt, iḥtajja bimithlihi al-Shaykhan aw ahaduhuma

[4] موسوعة الشعر العربى/ مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم/ الإصدار الأول/ 2009م/ سيرة ابن هشام/ 48.

Mawsu‘at al-Shi‘r al-‘Arabi / Mu’assasat Muhammad bin Rashid Al Maktoum / First Edition / 2009M / Sirat Ibn Hisham / p. 48

[5] موسوعة الشعر العربى/ مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم/ ابن دريد/ الاشتقاق/ 159- 160.

Mawsu‘at al-Shi‘r al-‘Arabi / Mu’assasat Muhammad bin Rashid Al Maktoum / Ibn Durayd / Al-Ishtiqaq / pp. 159–160

[6] موسوعة الشعر العربى/ مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم/ ابن كثير/ البداية والنهاية/ 6644.

Mawsu‘at al-Shi‘r al-‘Arabi / Mu’assasat Muhammad bin Rashid Al Maktoum / Ibn Kathir / Al-Bidayah wa al-Nihayah / p. 6644

[7] موسوعة الشعر العربى/ مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم/ سشيرة ابن هشام/ 50- 51.

Mawsu‘at al-Shi‘r al-‘Arabi / Mu’assasat Muhammad bin Rashid Al Maktoum / Sirat Ibn Hisham / pp. 50–51.